المحاضرة رقم 05

الأدب الجزائري القديم في عهد الدولة الفاطمية

1. لمحة تاريخية

الدولة الفاطمية أو العبيدية هي دولة شيعية، أسسها أبو عبيد الله الحسين الشيعي، ولد في الكوفة واعتنق الإسماعلية في العراق وعرف بالمحتسب لممارسته وظيفة الحِسْبة في مدينة البصرة، فقد وصل هذا الأخير ما بين 288 و289 للهجرة إلى مكة وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت للحج واستطاع أن يتعرف على حجيج كتامة وتقرب إليهم عن طريق دهائه وأظهر لهم الزهد والعلم والفقه، ورجع معهم موها إياهم أنه متوجه لمصر لتعليم القرآن الكريم للأولاد، ونزل بالقيروان ليستكشف الأوضاع وينفذ إلى مواطن الضعف في دولة الأغالبة الموالية للدولة العباسية في المشرق، ولما نزل بفرجيوة من أرض كتامة سنة 280 للهجرة استطاع أن يندس في القبائل البربرية ويغتنم فرصة اضطهاد الأغالبة للناس ويتمكن هو من دعمهم وراو فيه المخلص، وانتقل عبد الشيعي إلى جبال الأوراس اعتصم في جبال "تازروت" ووجه الضربات للأغالبة.

في جمادى الأولى من عام 296 للهجرة استطاع عبد الله الشيعي دخول القيروان بعد سقوط الأغالبة فيها، وأعلن أن الإمام الحقيقي للمسلمين هو عبيد الله المهدي وهو المهدي المنتظر حسبهم، الذي سيصل قريبا إلى المغرب ويظهر العدل والمساواة، وانظم إلى جيش عبد الله الشيعي مائتي الف من المقاتلين، ليدافعوا عن المذهب الشيعي والدولة الجديدة، وقد تم التضييق على أهل السنة والجماعة واضطهادهم في شمال إفريقيا. واستطاع عبد الله الشيعي تبيث الحكم الشيعي في القيروان بواسطة زعماء قبيلة كتامة، خاصة سيدهم ومطاعهم "غزوية بن يوسف"، وأخاه وبقية قومه، وأرسل إلى عبيد الله المهدي وابنه للمجيئ إلى القيروان، وما كان من هذا الأخير إلا أن يشد الرحال من مدينة "سلمية" إلى مصر ثم برقة ثم طرابلس متخفيا في ثياب التجار، لكنه وقع في أسر بني مدرار أمراء السجلماسة.

تم تحرير أبي عبيد الله المهدي، حيث قام جيش أبو عبد الله الشيعي بتحطيم دولة بن مدرارا وفي طريق العودة قام الجيش بإزالة دولة بني رستم بتيهرت عام 298 للهجرة وأصبح المغرب الأوسط وتلمسان دولة عبيدية. تولى عبيد الله المهدي، الذي أعلن قيام الدولة الفاطمية التي نسبها إلى فاطمة الزهراء بنت رسول اللهρ لخداع الناس وتضليلهم. وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان سنة 297 للهجرة وكان قد تخلص من أبي عبد الله الشيعي الذي دام حكمه قرابة العشر سنوات.

امتد وفود الدولة العبييدية إلى مصر، حيث أرسل خليفتهم الرابع المعز لدين الله، قائده جوهر الصقلي لفتحها بالسيف والقوة سنة 359 للهجرة وبنيت عاصمتها الجديدة "القاهرة" وأصبحت هي بيت الخلافة، ووضعوا أسس الأزهر مركز الإسماعلية الثقافي في مصر،

ووص المعز إليها سنة 362 للهجرة لتكون المركز السياسي والعسكري للدولة الفاطمية، التي أصبحت بهذا الاسم بعد دخول مصر[1].

ويقول الشيخ الطاهر الزاوي" ودامت دولة الفاطميين 260 سنة، منها اثنان وخمسون سنة بالمغرب، ومائتان وثماني سنوات بمصر، وعدد خلفائها أربعة عشر خليفة، وأولهم عبيد الله المهدي، وآخرهم العاضد الذي توفي بمصر يوم عشوراء سنة 567 هـ وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب، والملك لله وحده يأتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء"[2].

وهكذا استمر حكم العبيديين نحو قرنيي من الزمن، إلى أن قضى عليهم بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي سنة 564 للهجرة أزال كل آثار العبيديين.

2. الأدب والثقافة في عهد الدولة الفاطمية

برز الفاطميون في فن العمارة، فشيدوا مدن هامة مثل المهدية والقاهرة وجامع الأزهر، كما برز في عهد الدولة علماء أفذاذ كالحسن بن الهيثم في الفيزياء، وعلي بن رضوان في الطب، يعلى بن يوسف الفكلي. أما في الأدب فكان الشعر في مقدمة الفنون التي احتفى بها الفاطميون.

1. الشعر:

وواضح أن تقريب الفاطميين للشعراء والعلماء واعتنائهم بهم ليس حبا فيهم، لكن لنشر العقيدة الإسماعيلية بين عامة الناس، فأنشاء الخلفاء المكتبات وعمرت الخزائن بنفائس الكتب في شتى العلوم، فقد شغف العزيز بجمع الكتب حتى ربت مكتبته على ألف ألف مجلد حوتها خزانة الكتب في قصره وأشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق دار الحكمة في بغداد، واهتموا باللغة العربية وآدابها وراقبوها في الدواوين وجعلوا عليها الأساتذة المدققين. وزخرت الدولة بالشعراء لكن انقرضوا وكتابتهم مثلما انقرضت الدولة الفاطمية.

اهتم الفاطميون بالعلماء والشعراء وقربتهم مثلما كانت تفعل الدولة العباسية، وأجرى عليهم الأرزاق، وبلغت القاهرة المعزية-نسبة إلى المعز بالله- أوج حضارتها وغاية عمارتها فغصّت برجال الأدب والفنون والشعراء، ومن الشعراء الذين وفدوا إليها أبي الرقعمق الأنطاكي، وصريع الدلاء البغدادي، وابن حيوس الدمشقي، وأمية بن أبي الصلت الأندلسي، وأبي الحسن علي بن محمد الأخفش.

وقد جذبت الدول الفاطمية في المغرب الأوسط –المسيلة- الشعراء منهم أو أبرزهن ابن هانئ الأندلسي، الذي ناصر الشيعة ومدح أمراءها وهجا خصومها طمعا في القربى والجاه والمال، بالمقابل فرّ كثير من أدباء الجزائر آنذاك خوفا من بطش الفاطميين، الذي ضيقوا المجال على المالكية وأتباعها، كما أن الغلو في مدح الفاطميين كانت سمة الشعراء المقربين، فقد ألهوهم ونعتهم بصفات الله، من ذلك قول ابن هانئ الأندلسي في مدح المعز:

ولا مدح إلا للمعز حقيقة === يفصل دار والمديح أساليب

نجار على البيت الأمامي === وحكم إلى العدل الربوبي منسوب

ويقول:

هذا أميـرُ المؤمنينَ بمجلسٍ === أبصرتُ فيه الوحي والتنزيلا

وإذا تمثـلَ راكبـاً فـي موكبٍ === عـاينتُ تحـتَ ركـابهِ جبريلا

ويقول:

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ === فاحكُمْ فأنتَ الواحد القهّارُ
وكأنّما أنتَ النبيُّ محمّدٌ === وكأنّما أنصارك الأنصارُ
أنتَ الذي كانتْ تُبشّرنَا بهِ === في كُتْبِها الأحبارُ والأخبارُ
هذا إمامُ المتَّقينَ ومنْ بهِ === قد دُوّخَ الطُّغيانُ والكُفّار
هذا الذي ترجى النجاةُ بحبّهِ === و به يحطُّ الإصرُ والأوزار
وقد أنشد شاعر مادحا عبيد الله المهدي قائلا:
حل برقادة المسيح === حلّ بها آدم ونوح
حلّ بها أحمد المصطفى === حلّ بها الكبش والذبيحُ
حلّ بها الله ذو المعالي === وكلّ شيء سواه ريح
وقدس المكان حتى قيل عن المهدية:
هي المهديةُ الحرم الموقى === كما بتهامة البلد الحرام
كأن مقام إبراهيم فيه === ثرى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الرّكن أضحى === لنا بعراص قصركم التشام
لئن شاب الزّمان وشاب منك === دعائمه إذا عجمت حطام
لملكك أيها المهدي ملك === غلام والزمان به غلامُ
وعلى شاكلة هذا الشعر كتب الكثير في خلفاء الدولة الفاطمية إذا أردنا أن نستخلص بعص خصائص هذا الشعر، نقول:

-كثرة المدائح والمغالاة في الإشادة بالخلفاء والأئمة إلى درجة الكفر والتأليه

-غالبية الشعر كان سياسيا تكسبيا يدعو إلى المذهب الإسماعيلي

-ضاع معظم الشعر الفاطمي على يد الأيوبيين الذين قضوا عليه بحجة كفره

- كان الشعر الفاطمي من حيث الخصائص الفنية شعرا راقيا مثله مثل الشعر العربي وخير مثال شعر ابن هانئ الأندلسي.

4. شعراء الدولة الفاطمية في الجزائر

1. ابن هانئ الأندلسي: لقب بمتنبي الغرب، قتل وهو لم يبلغ العقد الرابع من العمر، وتأسف لموته معز القاهرة، الذي قربه إليه وأغدق عليه الأموال، وهو بدوره مدحه حتى بلغ درجة

الغلو والكفر، وساند عقائد الاسماعليين شعرا، فقد ارتفع الإمام عند ابن هانئ حتى بلغ درجة الإله ، يقول:

أرى مدحه كالمدح لله وإنّه ==== قنوتٌ من حنفٍ وتسبيح يخط به الوزر

2. عبد الله بن سلامة البجائي: شاعر وفقيه من أهل بجاية، سكن مصر وتنقل بين القاهرة والإسكندرية والصعيد والريف، كان معاصرا للعماد الأصفهاني الكاتب.

هو القائل:

لي حرمةُ الضّيف لو كُنتم ذوي كرم ... وحرمةُ الجارِ لو كنتم ذوي حسبِ

لكنّكم يا بني اللّخناءِ ليس لكُم ... فضلٌ ولا أنتمُ من طينة العربِ

كم لا أزالُ على حالٍ أساءُ بها ... منكم وأغضي على الفحْشاء والرّيب

لأترُكنّ لكم أرضاً بكم عُرِفتْ ... فأخبثُ البومِ يأوي أخبثَ الخِرَبِ

وما مُقامي بأرضٍ تسكنون بها ... منّي يطيبُ ولكن حرفة الأدبِ

3. علي بن إسماعيل القلعي المعروف بالطميش

من الواردين على مصر من أهل العصر، فنظم الطميش فيه قصيدة منها - وقال ابن الزبير هي منسوبة إليه مما ادعاها :

ولا بدّ من عزْمٍ يخيّلُ أنّني ... قدحْت على الظلماء من ندْزِه فجرا

يجوبُ ظلاماً كالظّليم إذا سرى ... إذا جنّ جوْن كان بيضته البدرا

وليل صحبتُ السّيفَ يُرعدَ حدّه ... وقد شاب فيه مفرِق الصّعدةِ السمْرا

حملتُ به درعي وسيفي وإنّما ... حملتُ غديرَ الماء والغُصنَ والنّهْرا

وأشْقر وردُ اللون لولا انتسابُه ... الى البرقِ سيراً خلتُه المسك والهجرا

الى أن بدا وجهَ الصّباح كأنّه ... لحافظِ دين الله آيته الكبرى

إذن الشعر الفاطمي سار على سنة الشعر في كل زمان ومكان وتعددت أغراضه وتشعبت مواضيعه فمن مديح على هجاء وفخر ومراثي وغيرها، وأهم ميزة امتاز بها الشعر في عهد الدولة الفاطمية هي كونه شعرا عقائديا سياسيا سخر لنصرة الدعوة الإسماعلية الفاطمية.

[1] - علي محمد الصلابي، الدولة الفاطمية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة 2006، ص 42-48.

[2] -الشيخ الطاهر الزاوي، الفتح العربي في ليبيا، ص 262.